الكرامة الإنسانية في ضوء المبادئ الإسلامية

الكرامة الإنسانية في ضوء المبادئ الإسلامية

الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري

المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة

إيسيسكو – المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل:

لقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم، وسخر لـه ما في السماوات وما في الأرض، وأرسل رسله وأنبياءه هداة ومبشرين ومنذرين، يدلون الناس إلى طريق الحق الذي يحقق لهم السعادة في الدنيا والفلاح في الآخرة. فالوحي الإلهي تكريم للإنسان، لأنه يهدف إلى ما فيه الخير لهذا الإنسان، وهو تفضيل لـه على سائر المخلوقات، فكرامة الإنسان من تكريم الخالق جل وعلا لـه، وهي أصيلة في الطبيعة البشرية، لا تكتسب لتوافر عناصر أو لتضافر عوامل أو لتواتر أسباب. ولم يكرم دين من الأديان بني آدم

كما كرمهم الإسلام، على اختلاف أعراقهم والوانهم. قال الرسول ـ صلى ا عليه وآله ـ (كلكم لآدم وآدم من تراب) وقال أيضاً «لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى» (1).

_____

1 ـ رواه البخاري ومسلم، من خطبة الوداع.

ولقد جاء الإسلام ليؤكد على أصالة الكرامة الإنسانية، وليرسخ في الإنسان إحساسه بكرامته، وليقوي تمسكه بها، وصونه لها، وذوده عنها، لأنها جوهر إنسانيته، ولب بشريته، وأسّ ذاتيته. فلقد راعت المبادئ الإسلامية في الإنسان انه أكرم الخلق أجمعين، وأنه يحمل الأمانة العظمى، وأنه مستخلف عن ا سبحانه وتعالى في الأرض، ليعمرها، وليقيم الموازين بالقسط، وليعبد ا وحده لا يشرك به أحداً، فكان الإسلام باعثاً للكرامة الإنسانية، وحافظا لها، بما جاء به من مبادئ سامية تصون للإنسان حرمته، وترعى كرامته، وتنزله المنزلة التي أنزله ا إياها مكرما مكفول الحقوق جميعا.

ومن أجل ان نقف على مقام الكرامة الإنسانية في المبادئ الإسلامية، نوطئ إلى ذلك ببيان الدلالة اللغوية للكرامة أولا، ثم نأتي على شرح الدلالة القرآنية لها، حتى تتوضح أمامنا المعاني وتبين المعالم البارزة لهذا الموضوع.

الدلالة اللغوية:

بالرجوع إلى معاجم اللغة العربية، نجد ان كَرُمَ فلان كَرَماً وكرامة، إذا أعطى بسهولة وجاد (جاد يجود جودا) فهو كريم. وكرم الشيء عز ونفس، والسحاب جاد بالغيث، والأرض زكا نباتها. أما الكرامة فمعناها في اللغة الأمر الخارق للعادة غير المقرون بالتحدي. وكرم السحاب جاد بمطره، وكرم المطر كثر ماؤه، وكرم فلاناً أكرمه، وفلانا فضّله (1).

ويتتبع دلالات هذا اللفظ، نجد ان كرّم الرجل الأمير، إذا احتفى به وعظّمه،

_____

1 ـ المعجم الوسيط، المجلد 2، ص 784، دار الفكر العربي، بيروت.

وكرم الرجل ضيفه، زاد من الحفاوة به والرعاية، وكرم ا وجهه، حفظه مما يستهجن ويخزى منه ونزهه، وكرم الرجل نفسه عما يشينها ونزهها ورفعها، ومنه قول زهير: ومن لا يكرم نفسه لا يكرم. والكرامة هي الشرافة، وكرامة النفس ترفعها وتصونها، والكرامة كون الشيء عزيزا، وتكرم فلان عما يشينه ترفع وتصون، وتكرم الرجل على صاحبه قدم لـه شيئاً من كرمه دون انتظار مقابل. والكريم هو السخي المعطاء وهو الصفوح السمح(1).

وفي كتاب التعريفات، الكرم هو الإعطاء بسهولة، والكرامة هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة، والكريم من يوصل النفع بلا غرض، فالكرم هو إفادة ما ينبغي لا لغرض، فمن يهب المال لعوض جلبا للنفع أو خلاصا عن الذم، فليس بكريم(2).

ويلفت نظرنا في هذا السياق أيضاً، ان من المعاني التي ينطوي عليها الأصل اللغوي للكرامة، الزيادة والفضل، والكثرة، والسهولة، واللين، والإعطاء بلا مقابل. وفي كتاب الكليات، رزق كريم، أي كثير، وقول كريم، أي سهل لين، وقد يطلق من كل شيء على أحسنه (3). فالتكريم إذن، هو إسباغ كل هذه الفضائل على المكرم، وفي ذلك تفضيل أي تفضيل.

_____

1 ـ الهادي إلى لغة العرب، المجلد 4، ص 30، دار لبنان للطباعة والنشر.

2 ـ كتاب التعريفات، علي محمد الشريف الجرجاني، ص 193، مكتبة لبنان، طبعة 1990.

3 ـ كتاب الكليات: معجم المصطلحات والفروق اللغوية، الكفوي، ص 992، مؤسسة الرسالة، بيروت 1992.

الدلالة القرآنية:

واستناداً إلى هذه الخلفية اللغوية، واستلهاماً من المعاني التي ينطوي عليها الأصل اللغوي للكرامة، نتأمل الدلالة القرآنية للكلمة في الكتاب العزيز، وقد ورد في سورتي الإسراء والفجر، فعل كرم واكرم، في السياقين التاليين، قال تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾(1)، ويدل سياق الآية على ان التكريم هو التفضيل، للترابط والانسجام والتناغم القائم بين بدء الآية وختامها: ﴿لقد كرمنا بني آدم﴾ و ﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾، حيث خلقهم الله في أحسن صورة وأكمل هيئة، وميزهم بالعقل وبالاستخلاف في الأرض.

ومن التكريم إلى الإكرام في قوله تعالى: ﴿.. فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه﴾(2) لتتكامل العلاقة بين المعنيين في إطار الدلالة القرآنية الجامعة لأطراف الأمر كله.

لقد كرم الله تعالى بني آدم كلهم، ورزقهم من الطيبات، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلا، فتأصلت الكرامة في الأصل الإنساني تأصيلا، فتكريم الله لعباده هو تشريف لهم ما بعده تشريف. يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية من سورة الإسراء: «يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، لقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾»(3).

فدلالة الآية القاطعة، ان الله شرف ذرية آدم على جميع المخلوقات بالعقل،

---

1 ـ سورة الإسراء: 70.

2 ـ سورة الفجر: 15.

3 ـ مختصر تفسير ابن كثير، المجلد 2، ص 389، دار القرآن الكريم، بيروت 1981.

والعلم، والنطق، وتسخير جميع ما في الكون لهم (1).

وإذا تدبرنا السياق الذي وردت فيه آية تكريم ا لبني آدم في سورة الإسراء ـ التي تسمى أيضاً سورة بني إسرائيل ـ يلفت نظرنا ان آيات كثيرة سبقتها تدور حول الفساد والاستعلاء، وحول ظلم بني إسرائيل لأنفسهم وتمردهم على تعاليم أنبياء ا، وحول الصراع القائم بين الحق والباطل، وبين الهداية والضلال، مما اقتضى حديثا عن آدم وبنيه. لقد كان آدم جديرا بأن يكون أفضل حالا ومآلا بعدما اصطفاه ا وأعلى شأنه، وأسجد لـه ملائكته، وكان بنوه جديرين بأن يكذبوا ظنون إبليس، بعدما أفاء ا عليهم من نعمائه ما يلهم الألسنة بالشكر ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا...، لكن آدم وهن عزمه، وأبناءه نسوا الجميل الذي يمرحون فيه، فلم يكن من مؤاخذتهم بد (2).

هكذا نرى ان الدلالة القرآنية للكرامة تنبع من التشريف، ومن التفضيل، ويرد ذلك في سياق التذكير بفضل ا ونعمته على العالمين. لقد وردت في القرآن الكريم هذه الدلالة في سبع آيات تنبني على الفعلين (كرّم) و (أكرم)، بينما تكررت صفة (الكريم) في القرآن ثلاثاً وعشرين مرة، ووردت بصيغة النعت ثلاث مرات، ووردت بصيغة الجمع ثلاث مرات، وبصيغة التفضيل مرتين، وبصيغة المصدر (الإكرام) مرتين، وبصيغة اسم المفعول ثماني مرات (3). وفي هذه

_____

1 ـ صفوة التفاسير، المجلد 2، ص 170، طبعة إدارة الشؤون الدينية بدولة قطر، 1981.

2 ـ محمد الغزالي، نحو تفسير موضوعي لسورة القرآن الكريم، الجز الثاني، ص 75، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، 1993.

3 ـ محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 766.

السياقات جميعا لا تخرج الدلالة القرآنية للكرامة عن إطار المعاني الثلاثة، التشريف، والتفضيل، والتذكير بالإنعام الإلهي، مما يرسخ في الوجدان أن الكرامة أصل أصيل في النوع البشري، وهي عنصر

رئيس في تركيب الطبيعة الإنسانية منذ ان خلق الله آدم.

فالدلالة القرآنية إذن، تؤكد بشكل قاطع، ان الكرامة الإنسانية هي من الفطرة، وأن لا تبديل لفطرة الله التي فطر الناس عليها.

المفهوم الإسلامي للكرامة الإنسانية:

ويتسم المفهوم الإسلامي للكرامة الإنسانية بخاصيتي الشمول والعموم، فيكتسب بذلك عمقا ورحابة وامتدادا في الزمان والمكان. ولعل من دقائق المعاني التي ينبغي ان نفطن بها ونتنبه لها، إن آية التكريم من سورة الإسراء جاءت في صيغة العموم، فالآية تشير إلى تكريم الله لبني آدم، وليس لجماعة المؤمنين، أو لفئة دون غيرها من الناس، فالتكريم هنا، هو تكريم مطلق المعنى يشمل البشر كافة، وينسحب هذا المعنى إلى الماضي والحاضر والمستقبل، ويمتد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فمن خلال المنظور الإسلامي، فإن الإنسان مكرّم، بصرف النظر عن أصله وفصله، دينه وعقيدته، مركزه وقيمته في الهيئة الاجتماعية، ان الله خلقه مكرما ولا يملك أحد ان يجرده من كرامته التي أودعها في جبلّته وجعلها من فطرته وطبيعته، يستوي في ذلك المسلم الذي يؤمن بالقرآن كتاب الله وبمحمد بن عبد الله رسول الله ونبيه، وغير المسلم من أهل الأديان الأخرى، أو من لا دين لـه.

فالكرامة البشرية حق مشاع يتمتع به الجميع من دون استثناء. وتلك ذروة التكريم

وقمة التشريف.

ولقد تعددت مستويات الخطاب الذي يوجهه الله إلى عباده في القرآن؛ فمن المؤمنين، إلى أهل الكتاب، إلى معشر المسلمين، إلى بني آدم، والى الناس كافة.

ولكل مستوى من الخطاب الإلهي دلالته الموحية والمدى الذي يبلغه معناه. والله سبحانه وتعالى يخبر في هذه الآية بأنه كرم بني آدم كافة، بصيغة الإطلاق والعموم.

إن المفهوم الإسلامي للكرامة الإنسانية هو من العمق والشمول بحيث يرتقي إلى قمة عالية من العدل المطلق، ومن المساواة الكاملة، ومن الحق والأنصاف اللذين لا يشوبهما شائبة. وفي الوقت نفسه، فإن هذا المفهوم ينسجم تماماً مع طبيعة الرسالة الإسلامية الموجهة إلى البشرية قاطبة، ذلك ان الإسلام دين إنساني الدعوة عالمي الرسالة، وهي الرسالة الخاتمة من الله سبحانه وتعالى إلى الناس كافة إلى ان تقوم الساعة.

لقد قامت مبادئ الإسلام وتعاليمه وقيمه كلها، على احترام الكرامة الإنسانية وصونها وحفظها، وعلى تعميق الشعور الإنساني بهذه الكرامة. وما دامت الرسالة الإسلامية تتغياً في المقام الأول، سعادة الإنسان وصالحه، وتبتغي جلب المنفعة له ودرء المفسدة عنه، فإن هذه المقاصد الشريفة هي منتهى التكريم للإنسان، بلك الدلالات الأخلاقية والمعاني القانونية للتكريم.

والإسلام في إحاطته للكرامة الإنسانية بهذا السياج المانع من كل الآفات والأضرار التي يمكن ان تلحق بالكرامة الإنسانية، يتفوق على جميع القوانين الوضعية والمواثيق الدولية الخاصة بحقوق الإنسان، بما لا مجال للمقارنة.

الكرامة الإنسانية في القوانين الوضعية:

لقد تطور الفكر البشري عبر العصور وانتهى إلى إقرار مبادئ وقواعد قانونية تنظم الحياة الاجتماعية والسياسية والمدنية في المجتمعات الحديثة. وعلى الرغم من هيمنة النظرة المادية على مجمل القوانين، فإن تأثير التوجيهات الدينية على بعضها، يبدو واضحا للغاية.

ان إقرار حقوق الإنسان في العصور الحديثة والاعتراف بها من لدن المجتمع الدولي، لم يكن بالأمر الجديد بالنسبة للمسلمين الذين قام دينهم على مبادئ حقوق الإنسان، وعدها من ضرورات الحياة، وليست حقوقا مجردة.

وبالاهتداء إلى حقوق الإنسان واعتمادها أساسا للقوانين الوضعية، تأصل المفهوم المادي للكرامة الإنسانية الذي يستند إلى تقرير المصلحة واعتبارها القاعدة والمرتكز لهذه الكرامة.

ولكننا مع ذلك سنتلمس الكرامة الإنسانية في ثلاث وثائق دولية تعد في عصرنا الراهن، الأساس الراسخ في الشرعية الدولية لحقوق الإنسان، وهي:

1 ـ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

2 ـ العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

3 ـ العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية.

إن أول ما يلاحظه الباحث في المواثيق الثلاثة، انها تتفق في الديباجة على مفردات موحدة، وهي الإقرار بما لجميع أعضاء الأسرة البشرية من كرامة أصيلة فيهم، ففي الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، تطالعنا الديباجة بما يلي: «لما كان الإقرار بما لجميع أعضاء الأسرة البشرية من كرامة أصيلة فيهم، ومن حقوق متساوية وثابتة، يشكل أساس الحرية والعدل والسلام في العالم». وفي العهد

الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، تبدأ الديباجة بهذه الصيغة: «ان الدول الأطراف في هذا العهد، إذ ترى ان الإقرار بما لجميع أعضاء الأسرة البشرية من كرامة أصيلة فيهم، ومن حقوق متساوية وثابتة، يشكل وفقا للمبادئ المعلنة في ميثاق الأمم المتحدة، أساس الحرية والعدل والسلام في العالم». كذلك تبدأ ديباجة العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية بالصيغة ذاتها، وهي: «ان الدول الأطراف في هذا العهد، إذ ترى ان الإقرار بما لجميع أعضاء الأسرة البشرية من كرامة أصيلة فيهم، ومن حقوق متساوية وثابتة، بشكل وفقا للمبادئ المعلنة في الأمم المتحدة، أساس الحرية والعدل والسلام في العالم».

وباستثناء الإعلان العالمي، فإن العهدين الدوليين الأول والثاني يتفقان على مبدأ هام، ورد في الفقرة الثانية من الديباجة في كليهما، والتي جاء فيها: «.. وإذ تقر بأن هذه الحقوق تنبثق من كرامة الإنسان الأصيلة فيه».

وهكذا نرى ان الكرامة الإنسانية في مفهوم الشرعية الدولية ـ استنادا إلى المواثيق الآنفة الذكر ـ هي كرامة أصيلة في أعضاء الأسرة البشرية. وعبارة (الأسرة البشرية) هنا تماثل التعبير القرآني (بني

آدم). وأصالة الكرامة الإنسانية تنبثق ـ هي الأخرى ـ من انها العنصر الأصيل في النوع البشري. وهذا ما يربط ـ ربطا وثيقا ـ بين الكرامة الإنسانية، وبين المصير الإنساني. وهو ما تنص عليه الفقرة الخامسة من ديباجة الإعلان العالمي على هذا النحو: «... ولما كانت شعوب الأمم المتحدة قد أعادت في الميثاق تأكيد إيمانها بحقوق الإنسان الأساسية وبكرامة الإنسان وقدره...».

وهكذا نرى ان لفظ الكرامة في الإعلان العالمي قد تكرر خمس مرات، وفي

العهد الدولي الأول مرتين، وفي العهد الدولي الثاني ثلاث مرات. وفي جميع الحالات ارتبطت الكرامة بحقوق الإنسان، وبالمصير الإنساني. وبذلك صار الإقرار بالكرامة الأصيلة للأسرة البشرية، مبدأ ثابتا من مبادئ الشرعية الدولية، وقاعدة راسخة من قواعد القانون الدولي.

ولقد جاء في المادة الأولى للإعلان العالمي لحقوق الإنسان: «يولد جميع الناس أحرارا ومتساوين في الكرامة والحقوق، وهم قد وهبوا العقل والوجدان، وعليهم ان يعاملوا بعضهم بعضا بروح الإخاء». وهذه المادة مقتبسة نصا وروحا، من قول مأثور للخليفة الراشد عمر بن الخطاب: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا» (1) وهذه المادة، وان كانت مأخوذة من إعلان حقوق الإنسان والمواطن الذي أصدرته الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر، فإنها تؤكد ان الروح التي تسري في هذا الإعلان، واقعة تحت المفهوم الإسلامي للكرامة الإنسانية، ومتأثرة به إلى حد بعيد. وهذا مجال واسع ورحب للبحث والمقارنة يفضي إلى نتائج بالغة الأهمية تؤكد جميعها هيمنة التشريع الإسلامي على العديد

---

1 ـ ومناسبة هذه القولة، ان محمد بن عمرو بن العاص ضرب مصريا بالسوط وهو يقول: خذها وأنا ابن الاكرمين، وحبس ابن العاص المصري مخافة ان يشكو ابنه إلى الخليفة. فلما افلت الرجل من محبسه ذهب إلى المدينة المنورة وشكا لعمر ما أصابه، فاستبقاه عنده واستقدم الوالي ابن العاص وابنه من مصر، ودعاهما إلى مجلس القصاص؛ فلما مثلا فيه نادى عمر: أين المصري؟ دونك الدرة فاضرب بها ابن الاكرمين ! وضرب المصري محمدا حتى ائخنه وعمر يقول: اضرب ابن الاكرمين ! فلما فرغ الرجل وأراد ان يرد الدرة إلى أمير المؤمنين قال لـه: «أحلها على صلعة عمرو، فوا ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانه!». قال عمرو: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واستشفيت. وقال المصري: يا أمير المؤمنين، قد ضربت من ضربني.

فقال عمر: انك وا لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه. والتفت إلى عمرو وقال: أيا عمرو ! متى تعبدتم (وفي رواية استعبدتم) الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا. الفاروق عمر، د. محمد حسين هيكل، جز: 2، ص: 198، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثامنة.

من القواعد القانونية الوضعية (1).

اننا نجد ان مفهوم الكرامة الإنسانية في القوانين الوضعية، يختلف عنه في المبادئ الإسلامية، لأسباب موضوعية كثيرة، أهمها على وجه الإطلاق، ان الوحي الإلهي هو الذي وضع الأساس الثابت للكرامة الإنسانية، وأكد أصالتها، في قولـه تعالى: ولقد كرمنا بني آدم، وهو تكريم إلهي يعلو فوق كل تكريم للبشرية جاءت به القوانين التي وضعها الإنسان لتنظيم شؤون حياته.

إن الشعور بالكرامة الإنسانية عند الإنسان المسلم ينبع من إيمانه با رب السماوات والأرض، ومن خشيته إياه جلت قدرته، فهي بهذا الاعتبار، قوامها الأخلاق وليس القانون، لان الأخلاق مصدرها الإيمان الديني الذي يبعث في أعماق النفس البشرية الإحساس بفضل ا على الإنسان حين كرمه وفضله على الخلق أجمعين.

وثمة نقطة بالغة الأهمية تتعلق بالفارق بين المعيار الأخلاقي للكرامة وبين المقياس القانوني، إذ من المعروف عند فقهاء القانون، ان دائرتي القانون والأخلاق غير متطابقتين، والتميز بينهما يرد من ان الجزاء أدبي يتعلق بازدراء الجماعة للفعل المشين، ويغلب على المقاييس القانونية انها ظاهرة تتعلق بالسلوك الخارجي في الأساس، بينما يغلب على المقاييس الأخلاقية انها باطنية تتعلق بالضمير وترجع للعقيدة الدينية، مع ان ثمة تداخلا في هذا الأمر، عندما

_____

1 ـ انظر «الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام» للمستشار علي علي منصور، طبعة دار القلم، القاهرة بدون تاريخ، حيث يقول في ص: 47 «يسلم الفقيه القانوني سيديو الفرنسي بأن قانون نابليون إنّما أساسه المذهب المالكي، ويضيف ان المذهب المالكي هو الذي يستوقف نظرنا لما لنا من صلات بعرب أفريقية، وعهدت الحكومة الفرنسية إلى الدكتور بيرون ترجمة كتاب المختصر في الفقه للخليل إسحاق بن يعقوب المتوفى سنة 1442 م».

يتصل الحكم القانوني على الفعل بعنصر (القصد والنية)، أو عندما يتصل الحكم الأخلاقي بالموقف العملي (1).

المبادئ الإسلامية تكرم الإنسان:

إن الكرامة الإنسانية ترتبط في المفهوم الإسلامي بالحرية وبالمسؤولية، فهي ليست كرامة بدون دلالة عملية تنعكس في سلوك الفرد ومعاملته لأعضاء الأسرة البشرية. ولعل من أعمق البحوث التي عرضت لهذا الجانب من الكرامة الإنسانية ما كتبه عباس محمود العقاد في كتابه «الإنسان في القرآن»، حيث يقول: «ان مكان الإنسان في القرآن الكريم، هو اشرف مكان لـه في ميزان العقيدة، وفي ميزان الفكر، وفي ميزان الخليقة التي توزن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات، هو الكائن المكلف، وهو أصوب في التعريف من قول القائلين (الكائن الناطق) واشرف في التقدير» (2).

ان المسؤولية والحرية ترتبطان في المنظور الإسلامي بالكرامة الإنسانية ارتباطا وثيقا؛ فا تعالى الذي كرم بني آدم، هو الذي ـ سبحانه ـ جعل الإنسان مسؤولا عن عمله، فردا وجماعة، لا يؤخذ واحد بوزر واحد، ولا أمة بوزر أمة؛ كل امرئ بما كسب رهين (3) لا يكلف ا نفسا إلا وسعها(4)وان ليس

---

1 ـ المستشار طارق البشري، «في المسألة الإسلامية المعاصرة: الوضع القانوني المعاصر بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي»، ص 30 دار الشروق، القاهرة 1996.

2 ـ عباس محمود العقاد، «الإنسان في القرآن »، ص 232، موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية، المجلد4، دار الكتاب العربي، بيروت 1971.

3 ـ سورة الطور: 19.

4 ـ سورة البقرة: 285.

للإنسان إلا ما سعى(1)، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرايره(2)، ولا تزر وازرة وزر أخرى(3)، فهي اذن، كرامة إنسانية مسؤولة تنبع من إحساس المرء بوجوده الحر، وبذاتيته المتفردة، تترتب عليها تبعات، ان نهض بها صاحبها على النحو الذي يرضي الله أولا ثم يرضي ضميره، كان منسجما مع كرامته، مستمتعا بها، موفيا لها حقها من المراعاة والاعتبار، ومن الحفظ والصون.

لقد جعلت المبادئ الإسلامية الإنسان سيد نفسه في كنف عبوديته لله، فهو مخلوق مكرم، استخلفه الله في الأرض لتعميرها، وليعبد الله بأنواع الطاعات والعبادات التي لا تعد ولا تحصى، فالإنسان المؤمن يعبد الله في كل الأحوال، بعقله وضميره، وبقلبه وجوارحه. ومن عبوديته لله، ومن طاعته للذات الإلهية وعبادته لها، يستمد الإنسان إحساسه العميق بالكرامة، وشعوره بالاعتزاز والارتياح والرضا والطمأنينة لفعله الخيرات، ولإقباله على الطاعات.

وهذا الشعور هو نعمة تغمر قلب الإنسان المؤمن، وتفيض بها روحه، وتجيش بها جوارحه كلها.

إن الإسلام كرم الإنسان حين جعل شرف الإنسانية يتمثل أولاً وآخرا في صلتها بالله، واستمدادها منه، وتقيدها بشرائعه ووصاياه. والحرية الحقيقية ـ التي هي جوهر الكرامة الإنسانية ـ ليست في حق الإنسان ان يتدنس إذا شاء ويرتفع إذا شاء، بل الحرية ان يخضع لقيود الكمال، وان يتصرف داخل نطاقها وحده وقيود

_____

1 ـ سورة النجم: 38.

2 ـ سورة الزلزلة: 8 ـ 9.

3 ـ سورة الإسراء: 15.

الكمال هذه تضعنا على الطريق إلى ا، طريق الكمال، والتصفية، والتحول عن مواطن الغفلة والركود، إلى مواطن الذكر والحرية، والسير في ميادين النفوس سيرا وجهته ا وعدّته صالح الأخلاق والأعمال، وشاراته التوبة والرغبة إلى ا والورع والعفة والقناعة والصبر والشكر والخوف والرجاء والتوكل والحب (1).

إن الإسلام جعل أعلى درجات التكريم والإكرام للإنسان هي التقوى ان أكرمكم عند ا اتقاكم(2)، ولذلك فكرامة الإنسان هي في تقربه إلى ا، باتباع تعاليم دينه ووصاياه، وباجتناب نواهيه وما حرمه على عباده، وهذا السلوك المستقيم السوي هو عين التقوى، إذ ليست التقوى شيئا مجردا، ولكنها إيمان وعمل وسلوك وممارسة وإقبال على فعل الطاعات والحسنات. وكلما اوغل الإنسان في هذه الطريق السالكة المؤدية إلى رضا ا على عباده، كان أوفر كرامة، تفيض عليه، وتغمره، وتملأ نفسه رضا وسكينة وطمأنينة وثقة في ا.

وللشيخ محمود شلتوت تعريف لطيف وبصير للتقوى في تفسيره حيث يقول: «أما تقوى ا تعالى، فهي ترفع في معناها العام إلى اتقاء الإنسان كل ما يضره في نفسه وفي جنسه، وما يحول بينه وبين المقاصد الشريفة والكمال الممكن في الدنيا والآخرة. والتقوى ليست خاصة بنوع من الطاعات، ولا بشيء من المظاهر، وإنّما هي كما قلنا، اتقاء الإنسان كل ما يضره في نفسه وفي جنسه، وما يحول بينه وبين الكمال الممكن. ومن ثمرات التقوى حصول الفرقان ـ ما يفرق به المرء بين الخير والشر والضار والنافع في هذه الحياة ـ ، فالعلم الصحيح، والقوة، والعمل النافع، والخلق الكريم، وما إلى ذلك من آثار التقوى، والتقوى

_____

1 ـ محمد الغزالي، «الجانب العاطفي من الإسلام»، ص 175 ـ 297، دار الدعوة، الإسكندرية 1990.

2 ـ سورة الحجرات: 13.

هي الشجرة والفرقان هو الثمرة» (1).

ان الإسلام دين الحياة وهو بذلك يدعو الإنسان إلى ان يمارس هذه الحياة بالحضور والمساهمة والإنتاج، والى ان يكون هذا الحضور متسما بالعزة والكرامة والشرف، مما لا يمكن ان يتحقق إلا بالحرية التي هي في طليعة حقوق الإنسان، والتي تعد في الرؤية الإسلامية، قيمة كبرى، سواء بالنسبة للفرد أو الجماعة (2).

إن أعظم تكريم للإنسان، في المنظور الإسلامي، أن هداه ا إلى التوحيد. ومن التوحيد دعوة الإسلام إلى الكرامة والى الحرية. والتوحيد هو تحرير الإنسان من الشرك، ومما يقذفه الشرك في قلب المرء من شعور بالهزيمة والسقوط: سقوط القيمة والهمة والاعتبار، وسقوط الشخصية المعنوية والكرامة الإنسانية.

ولما كانت كرامة الإنسان في التوحيد، وكان التوحيد هو تحرير الإنسان من الشرك بكل معانية ودلالاته، فإن الكرامة الإنسانية تتجلى اسطع وأقوى ما يكون التجلي في:

1 ـ مقاومة عبادة الأصنام والأوثان، (بكل أشكالها وأنواعها).

2 ـ محاربة الخضوع للأهواء والنزوات، (بجميع أصنافها وأضرابها).

3 ـ منع الانسياق لطغيان المال، (على أي وجه من الوجوه).

4 ـ الوقوف ضد استعباد الإنسان للإنسان (3)، (أيا كانت الأسباب والدواعي).

---

1 ـ الشيخ محمود شلتوت، تفسير القرآن الكريم، ص: 571، دار القلم، القاهرة، بدون تاريخ.

2 ـ د. عباس الجراري، «الإنسان في الإسلام: ماهيته وحقيقة وجوده»، ص 69، مطبعة الأمنية، الرابط، 1998.

3 ـ المصدر السابق، بتصرف، ص 69 ـ 70.

الكرامة الإنسانية وحاضر الأمة:

لقد علمنا ان كرامة الإنسان المسلم في إتباعه لدينه، وفي استيعابه لمقاصد شريعته، وانه كلما عظم حظه من العمل بما جاء به الإسلام من تعاليم ومبادئ وشريعة، زاد نصيبه من الشعور بالكرامة. ففي المنظور الإسلامي، لا تنفصل الاستقامة والتقوى، عن الكرامة والشرف، ينطبق هذا على الفرد، كما ينطبق على الجماعة، سواء بسواء.

ولما كانت كرامة أمة من الأمم، هي من كرامة أفرادها وجماعاتها وشعوبها التي تكون نواتها الصلبة، فإنه يمكن القول ان هضم كرامة الفرد يترتب عليه الأضرار بكرامة الجماعة. ولذلك كانت الجماعة مسؤولية عن حفظ كرامة أبنائها، على نحو من الإنحاء.

من هذه الزاوية ننظر اليوم إلى واقع العالم الإسلامي، والى ما تعيشه الأمة الإسلامية من أوضاع عامة. ومهما تحلينا بفضيلة ضبط النفس، وجنحنا نحو التفاؤل، فلن نملك أنفسنا من الاعتراف بأن كرامة الأمة قد مسها الضر، فهي كرامة مثلوبة، ومهضومة، مجروحة، تضافرت عوامل كثيرة لتؤدي إلى هذه الحالة من الضعف والعجز والتراجع الحضاري.

إن استرجاع الكرامة الوافرة للأمة الإسلامية، يكمن في عودتها إلى دينها تستلهم منه أسس التقدم في الحياة. وإذا ترجمنا هذا المبدأ العام إلى لغة العصر، فيمكن لنا ان نقول ان رد الاعتبار للعقل الإسلامي حتى يسود ويقود الأمة نحو المستقبل، ينبغي ان يكون عملية جماعية، وجهدا مشتركا بين جميع مكونات الأمة الإسلامية في إطار التضامن الإسلامي، ومن منطلق الإيمان بأن كرامة الأمة في تقدمها وازدهارها، فهناك شبه إجماع بين مفكري الأمة على ان أبرز السمات

الاستراتيجية للعقل الإسلامي المستقبلي هي: التقدم، الإبداع، التجذر، التمثل، العقلانية، التنظيم والفعالية والإتقان، الحرية والمسؤولية والمشاركة، التكيف (1).

والسؤال الذي ينبغي ان نطرحه على أنفسنا في هذه المرحلة، هو: كيف السبيل إلى إجراء تحويل واقعي لهذه السمات المجردة؟

إن ذلك لن يتم إلا بخلق الشروط الإنسانية والطبيعية الملائمة للتحول. والعملية ليست يسيرة بكل تأكيد، وهي حصيلة تضافر فعال وتضامن إيجابي لجهود واسهامات وتدخلات تصدر عن أطراف متباينة (2). ونحن مدعوون إلى ان نرد الاعتبار للإنسان في العالم الإسلامي، باحترام حقوقه كاملة غير منقوصة، في إطار ما تقضي به وتوجبه المبادئ الإسلامية، وبتوفير سبل العيش الكريم لـه في كنف الحرية والمسؤولية والشعور بالكرامة، على المستويين الذاتي والموضوعي.

ان عملنا من أجل إقرار مبادئ الإسلام في واقع الحال، هو الشرط الأول لحفظ الكرامة الإنسانية للمسلمين كافة، وللبشرية جمعاء. وذلك في إطار من التسامح والتعاون والاحترام المتبادل، وفي ضوء الحوار الحضاري بين ثقافات شعوب الأرض وأممها.

ان مجالات العمل تتشعب وتمتد امامنا، وميادين الحركة تتعدد وتشمل جميع مرافق الحياة، وينبغي ان نسلك نحو تحقيق أهدافنا نهجا تكامليا، تضبطه وتتحكم في اتجاهاته قواعد العمل الإسلامي المشترك ومبادئ التضامن

_____

1 ـ د. فهمي جدعان، «الماضي في الحاضر: دراسات في تشكلات ومسالك التجربة الفكرية العربية» ص: 563، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1997.

2 ـ المصدر نفسه، ص 563 من فصل (العقل الإسلامي والمستقبل).

الإسلامي. ونحن نعتقد ان العمل في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي، وما يتفرع أو ينبثق عنها من منظمات ومؤسسات وهيئات وجامعات، هو الإطار الأنسب لهذا التحرك الذي نحن مدعوون جميعا إلى القيام به على شتى المستويات، لا قرار مبادئ الإسلام في حياة الأمة، بما يحقق القدر المطلوب من التضامن والتكامل والترابط بين أجزائها، وبما يؤدي إلى ازدهار الحياة ازدهارا شاملا تحفظ فيه للإنسان المسلم كرامته موفورة وحقوقه مصانة.